التحضر والتحديث في المدينة العراقية
بحث في إشكالية المكان الحضري

م.م. حاتم راشد علي
كلية الآداب/ جامعة القادسية

الخلاصة:

صار من الممكن القول : إن ما يبتغيه الإنسان الحضري في عالم القرن الواحد والعشرين والقرون اللاحقة ، أن يحسم جدلية العلاقة (تحضر – تحديث) ، بإخضاعها ضمن إطار متوازن، توازنا يقضي من خلاله على حالة قلق التفكير والفعل ؛ لان المكان هنا إذا اضْطراب واختل توازنه ، لا شك وانه يؤثر على حضرية الإنسان .

إن إطلالتنا على هذا الموضوع ، كانت هاجسا تولد لدينا ، منذ أن أصبح توازن العلاقة بين التحضر والتحديث وكأنه حُلم مؤجل ، على الأقل في المدينة العراقية ، إذ نلحظ حالة تخمة حضرية تشهدها المدينة ، مما تم وصفها بأنها عملية تحضر زائدة " Over Urbanization " أخلت أولا ، بالبنية المكانية للمدينة ، نتج عنها خلل واضح في منظومة القيم ، التي نختزلها هنا في مفهوم التحديث "modernization "، إذ نعتبر حالة التحديث هنا حالة مأزومة ، بفعل تأزم عملية التحضر " Urbanization " نفسها ، ومن ثم ، فان العلاقة بينهما رغم تأزمهما معا ، علاقة عكسية ، فكلما ارتفع معدل التحضر " Degree Of Urbanization " قل معه مستوى التحديث في العقلية العراقية . وحتى نخرج من جدلية العلاقة ، وتحاشيا للوقوع في فخ (الدَورْ)، علينا أولا ، الإقرار بعدم استقلال المكان الحضري ، وهذا يعود بطبيعته إلى عمليات الغزو والتعاقب للجماعات المهاجرة نحو المدينة ، وما ينجم عن ذلك من اختلال واضح في بنية المكان ايكولوجيا وجغرافيا ، إلى جانب حالة الصراع السوسيو – ثقافي ، بين منظومة القيم الحضرية ، التي أشبه ما تكون بحالة القيم المحتضرة ؛ وبين ريفنة القيم والمكان ، فأصبحت القيم المهاجرة (الريفية) هي من تطبع سلوك الإنسان الحضري . وبناءا على هذه المعطيات ، تأتي تساؤلات الموضوع ، على الأقل تساؤلين ، نعتقد أنهما يحيطان بإشكالية الفكرة . فلماذا إذن ، لا يرافق التحضر تحديث في القيم ؟ وهل ثمة سلوك حضري في المدينة العراقية ؟

المقدمة

إن المدينة ، مكان استهوى واستحق عن جدارة اهتمام الباحثين في التخصصات الأكاديمية ، ليس هذا فحسب ، بل أصبحت المدينة حديث الفلاسفة وكتاب الرواية والقصة ، فالمدينة بهذا الاهتمام تستهوينا ، لنلامس تجلياتها الايكولوجية والاجتماعية والثقافية ، وها نحن نحاول أن نصف ونحلل عمليتا التحضر والتحديث ، بوصفهما ظاهرتين متلازمتين لكل مدينة ، ومن ثم ، فأن اختلافا واضحا في الدينامية التي تحرك هذه العمليات ، وتقدم لنا صورا متنوعة من درجات التحضر ، وأساليب التحديث او الحضرية ، وفي العراق ، فأن هاتين العمليتين ، تقدمان لنا بعضا من المؤشرات ، التي قد نصفها بالمتناقضات ، مع ضروريات وشروط الواقع الحضري .

لامواربة عندنا ، إن الإشكالية متشعبة ، وهذا يعني أن مخرجاتها على المستوى الايكولوجي أو الاجتماعي عديدة . لقد وضعنا جملة أهداف نحاول أن نمسك بها ، وكان في مقدمتها ، أن نصف ونحلل ظاهرة التحضر والتحديث ، واضعين إشكاليات فرعية ، نعدها هنا بمثابة نتائج خلل التوازن بين التحضر من جهة ، والتحديث من جهة أخرى . فارتفاع معدل التحضر ، وعدم استيعاب الوسط الحضري لأعداد السكان المتزايدة ، اخرج لنا زخما من المشكلات ، لعل أبرزها خلل البنية المكانية للمدينة ، الى جانب التجلي الواضح للصراع السوسيو – ثقافي ، بين منظومات القيم الحضرية والريفية ، فضلا عن مؤشرات أخرى .

العناصر الأساسية للبحث

أولا : إشكالية الموضوع

لاشك أن المدينة في العراق ، مرت بأطوار تباينت من خلالها خصائص كل حالة من حالات التحضر والتحديث ، ويؤشر للحالة الحضرية في تاريخ العراق القديم ، أنها كانت بموقع السيادة ، والفضل في ذلك إنما يعود الى قدرة الإنسان العراقي ، في أن يخضع مؤثرات الطبيعة لقدراته الإبداعية ، التي معها استطاع أن يبتكر وسائل حضرية أصيلة ، ظهرت مع استقراره في أول مكان حضري على وجه البسيطة ، واللافت للنظر ، إن هذا المكان لم يكن مجرد تجمعا بشريا ، بقدر ما كان مكانا للإبداع ، بمؤسسات عامرة ، وظهور طبقات متنوعة من الكتبة والبيروقراطيين ، والكهنة ، ورجال القانون ، والفنانين ، والعلوم الرياضية والهندسية .

لا نريد أن نوغل في تاريخ المدينة ، وإنما أردنا أن نبين أن عمليات التحضر والتحديث، كانتا بمستوى متوازن ، لم يؤشر على الأقل في تلك المرحلة حالة أزمة حضرية . ولكن مع تدفق سرعة حركة التاريخ وتقادم القرون من الأعوام ، حتى غدت عمليات النمو الحضري تتزايد بنسب عالية جدا

، وصل فيها تكدس السكان في المدن أمر مخيف ؛ لا سيما بعد أن وجدت المدينة نفسها أمـــام عجـــز اقتصادي / تنموي ، محلي ، أكثر منه عالمي ، ليؤشر هنا المأزق الحضري الخطير ، الذي برز فـــي اضطراب مكاني وثقافي معا ، اختزلنا عُقد الموضوع في إشكالية التحضر (النمو الحضري في المدن) والتحديث (هشاشة القيم الحضرية) .

أمام هذه الإشكالية ، نستطيع القول : ثمة أزمة حضرية فعلية ، تنذر بمشكلات قد نعجز على استيعابها ، ولعل هنا غياب المنظومات الفاعلة ، او لنقل ضعف أدائها ، يزيد الإشكال إشكالا ، ويزيد من عُقد الموضوع . هذا ما نريد وصفه على الأقل ، لنقف على التحضر كإشكالية، وعلى التحـــديث الذي يتمأشر بصراعه مع قيم الترييف ، لتختزل جميع هذه الإشكاليات في تساؤلين في الأقل ، نعتقـــد أنهما يستوعبان لحد ما تفاصيل الموضوع . فهل يرافق التحضر تحديث في القيم ؟ أم كلاهما متأزمان ؟ وهل ثمة سلوك حضري في المدينة العراقية ؟ .

ثانيا : أهداف البحث

إن النقاط الجوهرية ، التي يروم الباحث الإمساك بها ، بغية تحقيق غاية البحث برمته ، إنمـــا هي تركزت في النحو الآتي :

١. وصف وتحليل عملية التحضر في المدينة العراقية .
٢. وصف وتحليل عملية التحديث في المدينة العراقية .
٣. وصف وتحليل بعض المؤشرات الفرعية للمأزق الحضري في المدينة العراقية .

ثالثا : منهجية البحث

إن هناك مناهج عديدة ، ومداخل نظرية كثيرة ، يتحدد من خلالها مجرى البحـــث العلمـــي ، والتقصي في ظاهرة ما ، والباحث في علم الاجتماع عموما ، يتحرك بناءً على ما تفرضه الظاهرة قيد البحث من حركية تتطلب منه توظيفا منهجيا مرنا ، وفي علم الاجتماع الحضري ، يجد الباحث نفســـه أمام منظورين ، إما أن ينظر الى الظاهرة المزمع دراستها من زاوية الوحدة الاجتماعيـــة الصـــغرى Micro – Sociology ، ومن ثم ، فأنه يركز جل اهتمامه على خصائص الحياة الحضرية ، كدراسة مدينة بعينها ، أو دراسة جملة خصائص اجتماعية لسكان الحضر في منطقة معينة ، أو أن ينظر الـــى الظاهرة في إطارها الأعم ، وهو المنظور الثاني Macro – Sociology ، إذ يتناول الحياة الحضرية من وجهة النظر الاجتماعية الكبرى ، ولان هناك بعض المحاذير وراء التعميم ، أرجئنا التمسك بـــه ، واعتمدنا على الطريقة الأولى (Micro) ، إذ بدءا تم تحديد إشكالية الموضوع (تحضر – تحديث) ضمن إطار المدينة العراقية ، معتمدين في وصف وتحليل الموضوع على بعض المفـــاهيم والأدوات

النظرية ، لا سيما الايكولوجيا الحضرية لبارك (R.Park) ، وبـرجس (Burgess) ، والمـدخل السوسيو – ثقافي لرائده لويس ويرث (L.Writh) .

رابعا : ضبط المفاهيم

١. التحضر Urbanization

يشير التحضر الى عملية من عمليات التغير الاجتماعي يتم بواسطتها انتقال أهل الريف الـى المدن واكتسابهم تدريجيا أنماط الحضر ويحدث التكيف إذا ما اكتسبوا أنماط الحياة الحضرية [١] .

يعرف جيرالد بريز Gerald Breese التحضر : عملية تغير كمي وكيفي معا ، تؤدي الـى تحولات كبيرة في خصائص المجتمعات المحلية (المدن والبلدان) وسماتها ووظائفها[٢]. رغم عمومية وتجريدية هذا التعريف إلا انه يميز عملية التحضر من خلال حجمها او نموها المديني وخصوصـية ذلك المكان الذي يتميز بسمات وخصائص تميز المدن والبلدان عن الأماكن الأخـرى ذات السـمات المختلفة . ويلاحظ أن ثمة شروط يشترطها الباحثون لتعريف عملية التحضر فمثلا طرح نلز أندرسون بعد أن رفض فكرة ان تقوم عملية التحضر على انتقال الناس من الأريـاف الـى المـدن ؛ ذلـك أن التحضر قد يطال أناسا لم يغادروا قراهم الأصلية ومزارعهم ، لذلك هو يرى أن التحضر يعني حدوث تغيرات في القيم التي يؤمن بها المنتقلون من القرى الى المدن ، وتلك التغيرات هي بمثابة وصـمات اجتماعية جديدة يصبغها أهل المدن الحضرية على القادمين إليها ، ويمكن أن ينطبق ذلك المعنى على حالة المهاجرين.

طرح كلايد ميتشل Clyde Mitchell تعريفا للتحضر ركز فيه على فكرة الانتقال الى المدينة والإقامة فيها كشرط للتحضر ، فالتحضر من وجهة نظره : تلك العملية التي يصبح النـاس بموجبهـا حضريين ، وذلك بالانتقال من القرى نحو المدن ، والتحول من الزراعة كمهنة رئيسية الى مهن أخرى أكثر ملائمة لحياة المدن ، ويصاحب ذلك تغيرات موازية في أنماط السـلوك . ومـن خـلال تلـك التعريفات يمكن ان نستنتج بعدين رئيسين دارت حولهما التعريفات وهما : التغير باتجـاه الحضـرية ضمن إطار المدينة ، او التغير بالاتجاه نفسه ولو كان ذلك خارج إطار المدينة . وعموما فان التحضر يشار إليه في هذا البحث ، الى المكان الحضري ، الذي يتضمن الحجم ، والكثافة السـكانية العاليـة ، واللاتجانس الاجتماعي .

٢. التحديث Modernization

ينظر للتحديث نظرة واسعة ، لاكتسائه معاني عديدة ، ولكن المعنى الأكثر قربـا للمنطـق ، عندما نرى التحديث ، يشتمل على الجانب الكيفي ، الذي يتمظر في منظومة القيم العامة ، التي تحـدد

أحكام الفرد والجماعة تجاه استحقاقات الحاضر المديني ، لكن هذا المعنى بحد ذاته يعاني غموضا وتحديا بالنسبة لتقليدية الاتجاهات والقيم في المجتمعات الريفية والمضطربة ، التي تعاني تأجيلا للحسم القيمي ، إما التخلي عن الماضي ، أم المزاوجة بين ممكنات الماضي واستحقاقات الحاضر (العولمة) . ومن هنا ، فأن التحديث ، يقتبس من جملة المعارف والمهارات المنجزة في الغرب ، ويكمن السؤال ، الذي يبدو انه محسوم بالإيجاب في حالة اليابان ، في معرفة ما أذا كان تعرض المجتمعات التقليدية (تعرض سلمي أو عنيف ، إرادي أو غير إرادي) للتحديث الغربي ، يمكنه أن يحدث دون أن تكون الهوية الثقافية لهذه المجتمعات في خطر [٣] .

فالتحديث بهذا المعنى ، عملية تحول اجتماعي ، تنطوي على التقدم الاقتصادي وتخصص الأدوار السياسية والسعي لتحقيق المعقولية في صياغة السياسات والتطوير التقني والتحولات الجوهرية في الأنماط الاجتماعية التي تنطوي على الحضرية والقدرة على الانتقال الاجتماعي والجغرافي والتنمية التربوية وتكوين المجتمعات الثانوية ، وهذه جميعا تحول مجتمعا مستندا الى القيم والمؤسسات التقليدية الى مجتمع قادر على اتخاذ خصائص المجتمعات المتطورة ، أو الحديثة [٤] .

إن علاقة التحديث بالتحضر ، تفهم هنا ، في سياق مختلف عن بعض ما طرح في بحوث سابقة ، لنحيل المعنى الثقافي للتحديث ، الذي نراه متباطأ ، لحد عده معيقا ، لتأكيد حضرية الإنسان في المدينة ، فتلك الحالة المستنبطة ، تفرض عليه سلوكا ، يحدد انسياقه الطبيعي لمثيرات التحضر (المدينة) ، ومن ثم فأن هذا السلوك الحضري من شأنه ان يعمل على استقرار المكان الحضري ، فهو يفرض تسامحا اجتماعيا ، يراعي فيه قدسية الجماعات العرقية ، والدينية ، فهل هذا التوازن ، متوافر في بناء المدينة العراقية ؟ .

مؤشرات المأزق للحالة الحضرية في المدينة العراقية

أولا : التحضر الزائد وخلل البنية المكانية

إن عملية التحضر " Process of Urbanization " ، ارتبطت بطفرات سريعة في أحجام المدن والأرياف ، وأعداد السكان بشكل يدعو وصف هذه العملية بـ " الثورة الحضرية ". إذ تضاعفت أحجام المدن مرات عديدة ، والأرياف هي الأخرى تزايد سكانها ، فكبرت قراها ومستوطناتها ، ومما زاد من تضاعف السكان الحضر ، التغيرات الواسعة التي شهدتها علاقات الإنسان بالأرض ، فاتجه الكثيرون من سكان الأرياف الى المناطق الحضرية ، وكانت الأرياف بمثابة المستودعات البشرية التي تغذي المدن والتجمعات الحضرية .

فالعالم في بداية القرن التاسع عشر ، لم يكن من سكانه في المناطق الحضرية سوى نسبة قليلة لا تزيد عن (٢،٥ %) ، فمن مجموع سكان العالم الذي قدر في هذه الفترة بحوالي (٩٠٠) مليون نسمه ، لم يكن منهم يعيش في مدن تزيد في أحجامها عن عشرين ألف نسمه سوى حوالي (٢٢) مليون بشر ، وارتفعت هذه النسبه الى (١٠%) مع مطلع القرن العشرين ،اذ قدر عدد سكان المدن في بداية هذا القرن بحوالي (١٤٨) مليون نسمه [٥] .

إن المعطيات أعلاه – على قلتها – لم تؤشر حالة أزمة حضرية ، لسبب منطقي ، ان الأرياف كانت صمام أمان للمدينة بتزويدها بالمؤن والاحتياجات ، التي تحافظ على استقرار المكان الحضري . لكن مع تزايد المشكلات البنيوية في المجتمعات النامية ، كالحروب والمجاعات وسوء فاعلية التربة الزراعية ، ومشكلات اجتماعية استثنائية ، كالعنف بتنوعاته الطارئة لا سيما في العراق ، أسهمت جميعها في وضع الحالة الحضرية موضع المأزق ، الذي اختزل في مقولة فضفاضة (تحضر زائد – تحديث ضعيف) . لا بد أن يكون التوازن بين الحالة الحضرية والحالة الاقتصادية متحققا ، كي يستقر المكان الحضري ، والتوازن هنا يفترض ان يكون مبني على أساس التوازن / التوافق ، مع الظروف البيئية من جهة ، ومع الدافع او الغاية الكامنة وراء ذلك التجمع السكاني / الحضري ، وصولا الى التحكم بالأعداد البشرية المطلوبة وبدون هذه العلاقة البناءة ، فأن المسالة تصبح مختلة ، وفي هذه الحالة توصف عملية التحضر بـ " اللاتناغم الحضري " Disharmony Urbanism ، او بالإشكالية او المشكلة Problem[٦]. وتبدأ المشكلة هنا ، عندما نلحظ بوضوح المكان الحضري مختل البنية ، وما يؤيد ذلك ما ذهب إليه "روبرت بارك" R. Park ، عن وجود ظاهرة تحضر زائد او مفرط Over Urbanization ، وينتشر هذا النوع في العديد من المجتمعات المتخلفة ، وفحواها ان معدلات التحضر Urbanization أعلى بكثير من معدلات التنمية الاقتصادية ، بمعنى ان زيادة نسبة سكان المدن لا ترجع الى تزايد الحاجة الى عمالة داخلها ، نتيجة لظهور مشروعات صناعية واقتصادية أو اجتماعية جديدة ، تستدعي وجود المزيد من الأيدي العاملة داخلها ، وإنما ترجع الى سوء أحوال المناطق الريفية والمحلية المجاورة للمدن ؛ لتزايد السكان بها وعدم وجود فرص العمل والارتزاق لهم ، الأمر الذي يدفعهم دفعا الى الهجرة للحضر او المدن لعلهم يجدون فيها فرصا أفضل [٧] .

إن التحضر الزائد – المشار إليه– أعاد تشكيل بنية المكان الحضري ، متحولا به من تمايز ايكولوجي / حضري ، كاستعمالات الأرض وظيفيا دون ضررا او ضرار يلحق بالإنسان والمكان ، الى اضطراب ايكولوجي / حضري ، تمأشر بمستويات خطيرة ، كالتزاحم على مساكن المدينة ، التي وصل بها الحد الى ضيق في ممارتها وتعرجات لأزقتها ، مفتقرة الى التنسيق والتخطيط الواضح ،

وما رافق كل ذلك من مشكلات اجتماعية واقتصادية وصحية . وقد نبه احد السوسيولوجيين الحضريين ، وهو " لويس ممفورد " Mumford الى خطورة خلل البنية المكانية للمدينة ، وما يتمخض عنها من نتائج ليست حميدة ، فهو يصف تلك المخاطر في عبارتين هما : " صراع الفردوس " ، و"صراع الجحيم" ، لما يتكبده الساكن في المدينة من ملل وسأم جراء المساكن المزدحمة والشوارع المكتظة بالبشر ، وما صنعته يد البشر ، ويرى بعض المراقبين في هذا الإطار ، إن هذه الظواهر التي – أشير إليها – ليست مرعبة ، بقدر ما يترتب عليها من نتائج مثل : الجريمة والانحلال والانحطاط الخلقي ، والسلوك غير الحضري ، والانحراف الذي يستشرى في ظل الحياة الحضرية [٨] .

لاشك أن خلل بنية المكان الحضري ، يرتبط اشد الارتباط بظروف الأرياف وما تعانيه من خلل في قاعدتها الاقتصادية ، مما يدفع بعملية التحضر نحو مستويات غير صحية ؛ لذلك يؤشر أن الدافع الأساس للهجرة هو انعكاس لطبيعة الأوضاع الاقتصادية ، التي تميز حياة الغالبية من الدول النامية ، وربما العراق هو مصداق لذلك . فالظروف البيئية المتذبذبة ، وضعف قدرات الأرض على الإعالة والإنتاج ، يفرض على ساكن الأرياف فرصا محدودة للعمل والإنتاج ، وتكون النتيجة مدخولات سنوية محدودة ، وقلة في العوائد المالية . وتبقى عندئذ فرص الإنفاق والاستثمار اللازمة لتطوير الحياة الاقتصادية متدنية وعاجزة عن امتصاص الزيادات السكانية الكبيرة في مناطق الأرياف [٩] . فزيادة السكان في الأرياف والقرى تفوق معدلات اتساع الأراضي والإنتاج ، فضلا عن غياب الخدمات الاجتماعية والمؤسسات من مدارس ومعاهد وجامعات ومستشفيات وشركات ..، الى جانب اقتصار المشاريع التنموية الكبرى على المدن دون الأرياف كل يدفع بالريفيين الى الهجرة [١٠] .

إن ظاهرة هجرة الريفيين ، هي ليست دائما حالة سلبية ، وإنما لها وظيفة ايجابية ، اذا ما تيسر لها ظروف ملائمة في المكان الحضري ، ولكن الحال مختلف عندما ننظر الى أوضاع المهاجرين وطموحاتهم تجابه بالإحباط على مختلف المستويات ، بل أنهم يصبحون أكثر بؤسا عند تواجدهم في مناطق السكن العشوائي Slum [١١] . ويرى تشارلز أبرامز ان تدهور الأوضاع البيئية والاجتماعية والاقتصادية في المناطق العشوائية ، يرجع الى ارتفاع أعداد المهاجرين الى المدن وتكدسهم في تلك المدن [١٢] . إن ما ينضاف الى عدم استقلالية المكان الحضري هو أن نرى باستمرار ، انتشار الأنماط والعادات السلوكية للمهاجرين ، في المدن ، فقد يحدث أن ينتقل شخص للإقامة في المدينة دون أن يتقبل الأنماط السلوكية الحضرية ، ودون أن يترك عاداته الريفية كلية ، كما يحدث أيضا أن ينتقل احد الإفراد للإقامة في الريف دون أن يفقد حضريته [١٣] . لاشك بعد هذا الاستعراض ، أن نرى هناك تخمة حضرية واضحة المؤشرات في بنية المدينة العراقية ، وتلك الحالة المأزومة تعمل على اضطراب صور السلوك الحضري .

ثانيا : صراع المكان السوسيو – ثقافي وإشكالية السلوك الحضري

إن للمكان ذاكرته ، وان شئنا القول : إبداعاته ، إيمانا بان الذاكرة هنا ، ذاكرة إبداع ، أضافت ، وابتدأت اجتماعيته ، منذ أن ابتدأ الفاعل الاجتماعي يلامس عمليات التغير في وقت مبكر من وجوده ، سبق من خلاله كل المجتمعات ، التي بقيت رهينة الليفاثان " الطبيعة " وأسيرة الصراع الاجتماعي / الاقتصادي . لم يرضخ الإنسان العراقي / السومري ، لخيارات الطبيعة وانقسامات او تنوعات الاجتماع البشري ، معلنا بذلك تخطيه لهذه التفاعلات ، ومن هنا بدأ تحدي الإنسان الصارخ لضغوطات الطبيعة والاجتماع البشري ، مرخيا الحبال لإسقاطات العقل الهادفة ، في ضرورة فهم الاجتماع البشري ، على انه اجتماع لذوات فاعلة في حركة التاريخ ، فأشرت تلك الفاعلية أول بزوغ مديني / عقدي / اجتماعي ، تكللت بمأسسة النشاطات وصور الفعل الاجتماعي في المكان الحضري .

إن أول تجربة ، خاضها الإنسان على كوكب الأرض ، كانت ناجحة ونجاحها تمأشر في عطاءات معرفية وجمالية واقتصادية واجتماعية ، تعدت حدود اللا منطق ، التي أشار أليها توماس هوبز (١٥٨٨– ١٦٧٩) ، عندما كانت جماعات ما قبل الاجتماع الحضري تعيش حالة اقصاءات واقتتالات وفوضى عارمة ، ولكن الإنسان الحضاري القديم استطاع بحنكته الإبداعية أن يتخطى تلك الممارسات ، مما حدا بـ "Gorden Childe " الإقرار ، أن ما حدث في حضارة وادي الاندس من تحولات سواء في المجال الزراعي ، او الحرفي ، ومجالات أخرى كالتصور والتفكير ، إنما هي انتقلت بفعل المراكز الحضرية ، التي بنتها الحضارة الرافدينية القديمة (...) ، كما أثبتت برديات تل العمارية ، أن المدن الرافدينية القديمة وبابل على وجه الخصوص ، أثرت في احد أهم مدنيات الري القديمة (مصر الفرعونية) ، في مجال التفكير بالوحدانية مع وفي العلاقات الدولية وإدارة نابهة للتعامل الدبلوماسي [١٤] .

إن فكرة الزعامة الحضرية للعراق القديم ، إنما هي يفترض منطقيا وعلميا ، أن تكون هكذا ؛ لان السجال الايكولوجي / الاجتماعي ، كان متوازنا ويقوم على أساس التعاون التعايشي ، ولكن عندما ابتدأت المشكلة ، حتى اتخذ الصراع جلباب جديد ، غير الصراع الذي كان سائدا في أول بزوغ للتفكير المنطقي مع الطبيعة ، فتحول المكان الى صيرورة ، لا نعرف متى تتوقف ، فضلا عن كونها خلخلت بنية المكان نفسه ، وأصبح الصراع ذو وجهين ، تطبّع الوجه الأول ، بتصادم القيم (تحديث – ريفنة) ، أما الوجه الآخر ، فتطبّع بصور من السلوك اللاحضري ، التي يمكن ملاحظة مؤشراتها في المدينة العراقية . إن القضية الأولى ، وهي تصادم القيم ، مسألة أشير إليها من قبل باحثين وعلماء اجتماع متخصصون ، ولكن ما يميز هذا التصادم ، انه جعل من الحضرية والريفية طريقة للحياة تتناقض باستمرار ، مخرجة لنا اختلالات مكانية واجتماعية ، هذه الاختلالات جلبت معها اضطراب

في الرؤية ، هل المكان ، حضري أم ريفي أو انه حضري – ريفي ؟ وكيف السبيل تجاه حسم العلاقة (تحديث – ترييف) على المستوى القيمي .

إن ثلة من الدراسات التي اجريت حول هذا الموضوع ، اكتفت بتأشير وتوصيف تلك الحالة ، وربما دراسات الوردي واحدة من هذه الدراسات* . ولكن يُعذر الوردي وغيره من الباحثين في هذا الخصوص ؛ فالموضوع بجملته معقد ، وهو يرتبط أصلا بخلل بنيوي / اجتماعي عام ، ما زال مؤشر التنمية الهادفة إن لم يكن غائبا فهو ضعيف ، وان كان ضعيف فهو على مستوى التحضر المادي ، أما مستوى التحديث (القيم) ، فهي ما زالت رهينة الدفاع عن نفسها أمام القيم الريفية ، ومن ثم ، أصبح السلوك في المدينة سلوكا يتحدد بناءً على مخرجات عملية الصراع القيمي . فالصراع هنا لا يعطي مجالا للحديث عن اختلافات الموطن والإقامة ، التي تحدث عنها لويس ويرث "L.Wirth "، والتي بالإمكان الحديث عن بعدها عن أنماط مختلفة من السلوك وطرق متمايزة من أساليب العيش والحياة ، ومن ثم وفقا لهذه التصورات تتميز عملية التحديث والريفنة ، كحالات نفسية واجتماعية ، أو طرق للحياة يمكن قياس مؤشراتها من أشكال العلاقات وانساق التفاعل ومحددات السلوك [١٥] .

لكن ما يلاحظ ، أن ليس هنالك استقلال نسبي للمكان الحضري والمكان الريفي ، ومن ثم ليس هناك استقلال قيمي ، فالتحضر في المدينة العراقية ، مؤشر مرتفع ، والحقيقة ان ارتفاعه ليس ايجابيا ، لان مقاييس التحضر مثل : الحجم والكثافة واللاتجانس ، التي – أشار إليها – ويرث ، لم تستتبع معها خصائص هذه المقاييس ، كالخصوصيات السلوكية ، والتسامح الحضري وتقسيم العمل والمنافسة وما الى ذلك .

إن واحدة من تبعات خلل التوازن (تحضر – تحديث) ، ان تحولت بنية المكان الحضري الى صراع اثني وطائفي ، مما أعاد تشكيل التمايزات الاجتماعية باقصائية مفرطة ، أقحمت في هذه العملية ، الانتماءات الفرعية / التقليدية ، فأصبحت من خيارات التحرك الجماعي مكانيا * . فالسلوك الحضري في المدينة العراقية ، ليس سلوكا تحدده خصائص نمط التحضر – السالفة ذكرها – فهو سلوك مضطرب ؛ بسبب اضطراب المكان أولا ، واضطراب الاجتماع الحضري ثانيا .

ثالثا : هل ثمة تسامح اجتماعي / حضري ؟

إن ما يكشف عنه المجتمع الحضري من درجة كبيرة في اللاتجانس بين جماعاته ، طرح سؤالا صريحا ، هل من ضرورة لتسامح اجتماعي ؟ بطبيعة الحال ليست الإجابة واحدة ، إذا ما نظرنا الى بنية المجتمعات التي تنقسم بين مجتمعات حضرية متوازنة ، ومجتمعات حضرية مضطربة ، تبدو الإجابة من وجهة نظر محلية أكثر صعوبة ، إذا ما أخذنا بعناية تامة ، الانقسام الهوياتي / الاجتماعي

في المكان الحضري ، فهذا الانقسام بحد ذاته ، يؤجل الحديث عن التسامح الاجتماعي / الحضـــري ؛ فالتسامح في الأنماط السلوكية سواء النمط السلوكي العام ، او النمط السلوكي الخاص ، حالـــة خـــدش فيها ، فليس هنالك تراث حضري مشترك ، يلتقي عنده الأفراد جمعيا ، وليس ثمة أيضا صيانة للسلوك الخاص ، فهو أيضا لم يتحرر من قيود الطريقة الريفية في الحياة .

فالسلوك العام في المدينة ، لا يصان كما يفترض له أن يصان ؛ بحكم أن المجتمع الحضـــري مجتمع مفتوح ، يسمح بتعددية الثقافات وتنوع الممارسات العقائدية ، بل أن انفتاحية المجتمع الحضري ، قُيدت بإسقاطات الظروف الاستثنائية ، كالعنف الاجتماعي Social Violence وما تمخض عنها من تهجير وتمزيق لمكونات النسيج الحضري .

إن المعادلة الغريبة ، التي تؤول معنى الحياة الحضرية في العراق ، تختلف تماما عن التـــي وضعها " L.writh " ، فالأخير اعتبر التسامح الاجتماعي ، ضرورة من ضروريات محددات الحيـــاة الحضرية (الحجم ، الكثافة ، اللاتجانس) ، ومن ثم فالمجتمع الحضري ، ليس مجتمعا غير معياري ، يفتقد الى ضوابط السلوك ، وإنما يعني انه لا يهتم ولا يعنى إلا بتنظيم السلوك العام ، أمـــا الســـلوك الخاص ، فأمر يتسامح فيه ، طالما انه لا يتعارض مع الأنماط العامة للسلوك ، كما انه يسمح بتعـــدد الثقافات الفرعية إذا كانت لا تتعارض مع الإطار الثقافي العام [١٧].

إن فرض التسامح ، في مجتمع المدينة ، أمر يتطلبه واقع ممزق ، وهنا لا يأتي الفرض قسرا ، وإنما النهوض بنظام القيم الحضرية من جديد ، إنما يتم عبر وساطات تحديثية فاعلة ، ومن ثم يمكن القول : إن هناك قيم مستقلة ، بمعنى أنها لا تخترق او تهشم بوساطة قيم طارئة ، ولأنها طارئة ، فهي معرضة للتلاشي ، وهذه هي نقطة القوة التي تتمتع بها القيم الحضرية ، ولكن كل ذلك يعتمـــد علـــى فواعل اجتماعية ، لعل أبرزها نخبوية التحديث ، كمؤسسات المجتمع المدني ، والطبقة البرجوازية □ ، الى جانب مدى قناعة السلطة النخبوية بتيار التحديث .

رابعا : القلق الحضري للإنسان العراقي (منظور مختلف)

يتشّكل الإنسان حضريا ، عندما يصطدم بمثيرات المكان ، التي تدفع الإنسان دفعا نحو تمثّـــل ممارسات سلوكية تساعد على التكيف مع الحياة الحضرية الجديدة ، ومن هنا وصفت تلك الحالة بأنها حالة سيكولوجية / عقلية ، تنتاب الإنسان وهو يغادر عالمه الصغير (القرية) ، حاطا برحالـــه فـــي المدينة ، وهي نصيحة قالها احد الريفيين القادمين من الشمال عن يوركشير بأنها " ليست مجرد منطقة ، ولكنها حالة عقلية "[١٨] .

ولكن عندما لا يحسم الفرد خياراته المتأرجحة ،يصبح عرضة لقلق سلوكي واضح ، وهو قلق ما زال الإنسان العراقي في المدينة ينتجه باستمرار ، سواء بممارسات معرفية ، او سلوكية ، أو وجدانية . إن الحالة التي أكدها " لويس ويرث " ، وهي أن المثيرات الحضرية تعمل على تشكيل سلوك الفرد ، فهو يعني بذلك ، أن المكان الحضري مستقل ماديا وثقافيا ، وبهذا نستطيع أن نحسم القلق الحضري ، ولكن الأمر مختلف تماما في الحالة الحضرية العراقية ، إذ نرى الفرد قلقا ، لا لكونه يتأثر بمخرجات التحديث ، وإنما قلقه يفسر هنا ، بداعي انه لا يستطيع أن يتحضرن ، فيتعرض لوصم الترييف ، ولا يمكنه أن يريف سلوكه ، فيوصف بالتخلف ، وبهذه المعادلة القلقة ، فالقلق يبقى مستمرا في المستوى القيمي ، أما المستويات الأخرى لا سيما المادية ، فهي تتقارب فيزيقيا (قصور – عشوائيات) ، وبهذا فان القلق الحضري ، قلق في القيم (التحديث) وقلق في المكان (التحضر) .

الخاتمة

لاشك بعد أن قدمنا وصفا وتحليلا لظاهرة امتدادها عميق ، وتأثيرها بليغ ، اتضح بهذه العجالة ، أن عملية التحضر والتحديث وصلتا الى حالة توصف بأنها متأزمة ، ولهذا ما يبرره موضوعيا ، ممسكين هنا بمحركات الأزمة . فكان أول الإشكاليات ، أن وصفنا التحضر ، انه عملية أسهمت في خلل البنية المكانية للمدينة العراقية ، فأصبح ما يمكن وصفه بالقلق الحضري ، الذي يتمأشر في التزاحم الايكولوجي – الاجتماعي (مبان راقية – عشوائيات) .

ثم انتقلنا الى الإشكالية الأخرى ، والمتمثلة بالصراع السوسيو – ثقافي ، الذي يتمظهر في سلوكيات وأفعال اجتماعية قلقة هي الأخرى ، فضلا عن ابتعادها المنطقي عن المثيرات التي أشار إليها لويس ويرث ، مما يدعو الى اعتبار السلوك في المدينة سلوكا ليس حضريا بالمطلق لكن لا يلغي المدينة وجودا ، وإنما يشوهها ، مما يعطي مجالا للنهوض بواقع المدينة .

لم يقف تأشيرنا عند هاتين الإشكاليتين ، وإنما رصدنا إشكالية متعلقة بالتسامح الحضري بين مكونات المجتمع الحضري ، والتسامح هنا ، يتضح تجليه ، عندما نرصد سوء صيانة السلوك العام ، الذي يظهر على توازن العلاقات الاجتماعية ضمن النسيج الحضري . إذن يتضح بعد هذا الوصف أن نستنتج حقيقة عامة مفادها : أن الأزمة في المدينة ، أزمة في التحضر(المكان) وأزمة في التحديث (القيم) .

التوصيات

- استيعاب الأعداد المتزايدة من السكان ، من خلال تطبيق سياسة إسكانية تكون ضمن إستراتيجية طويلة المدى وشاملة ، وهذا يعني أن السياسة الإسكانية لابد أن ترتبط ببرامج التنمية الاقتصادية والاجتماعية في داخل البلد .
- إن عملية استيعاب الأعداد الإسكانية المتزايدة ، لابد لها أن تقترن ببرامج الإعانات الإسكانية المتعلقة بالمحفزات والدوافع الضرورية ، بمعنى أخر أن لا تحتكر الجهات التنفيذية الإشراف على المشروعات الإسكانية وتنفيذها ، بل أن يأخذ دور الأفراد والجماعات في المشاركة في المشروعات الإسكانية .
- تفعيل برامج التوعية ، سواء في تطوير وتنمية قدرات ومهارات الأفراد ، او تطوير مفاهيم وأفكار تتناغم والحياة الحضرية ، وان تساعد هذه البرامج على تأقلم وتكيف الأفراد للأنماط الحضرية ، وتوكل عملية البرامج هذه الى جمعيات ومنظمات محلية .
- قيام الجهات المختصة بفرض رقابة على الممارسات التي تتنافى وقيم التحديث في المدينة ، من فرض غرامات مالية تجاه كل من يعبث بالمكان الحضري .

الهوامش

١. بودون ، ريمون ، فرانسوا بوريكو ، المعجم النقدي في علم الاجتماع ، ج/١ ، ترجمة: وجيه اسعد ، (دمشق ، ٢٠٠٧) ، ص٢٢٩ .
٢. السعيد ، د. احمد عطية الله ، المعجم السياسي الحديث ، (بيروت ، شركة بهجة المعرفة، ص٢٧٢ .
٣. كمال ، احمد (وآخرون) ، دراسات في علم الاجتماع ، (مصر ، دار الجبل للطباعة ، ١٩٧٤) ، ص٣٠ – ٣١ .
٤. عزام ، إدريس ، (وآخرون) ، المجتمع الريفي والحضري والبدوي ، (القاهرة : الشركة العربية المتحدة للتسويق والتوريدات بالتعاون مع جامعة القدس المفتوحة ، ٢٠١٠)، ص٢٧٣ .
٥. أبو عياش ، د. عبد الإله ، أزمة المدينة العربية ، ط/٢ ، (الكويت ، وكالة المطبوعات ، ١٩٨٥) ، ص١١٥ .
٦. المراياتي ، د. كامل ، النمو الحضري وأثره في البناء الايكولوجي لمدينة بغداد ، رسالة دكتوراه (غير منشورة) ، (جامعة بغداد ، ١٩٩٢) ، ص٥٦– ٥٧ .
٧. السمالوطي ، د. نبيل ، علم اجتماع التنمية ، دراسة في اجتماعيات العالم الثالث ، (بيروت ، دار النهضة العربية ، ١٩٨١) ، ص٣٣٢ .
٨. الجوهري ، د. محمد ، دة. علياء شكري ، علم الاجتماع الريفي والحضري ، ط/٢ ، (دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٣) ، ص٣٢٩ .
٩. أبو عياش ، د.عبدالاله ، د. إسحاق يعقوب القطب ، الاتجاهات المعاصرة في الدراسات الحضرية ، (الكويت ، وكالة المطبوعات ، ١٩٨٠) ، ص٢١١ .
10- Nafziger, E. Wayne,Econmic Development, (Cambridge,University Press ,2006),P.310.

١١. عزام ، د.إدريس ، (وآخرون) ، مصدر سبق ذكره ، ص٢٠٩ .
١٢. أبرامز ، تشارلز ، المدينة ومشاكل الإسكان ، ترجمة : لجنة من الأساتذة الجامعين ، (بيروت ، دار الأفاق الجديدة ، ١٩٦٤) ، ص٧ -٢٦ .
١٣.بركات ، حليم ، المجتمع العربي في القرن العشرين ، (بيروت ، مركز دراسات الوحدة العربية ، ٢٠٠٢) ، ص٢٣١ .
14. Anderson ,Nels ,"Urban Community" ,Routledge and Kegan Paul, London , 1960",P.5.
١٥. مناف ، د. متعب ، مدينتنا والعولمة ، بحث في جغرافيا الهوية والآخر المعولم ، بحث (غير منشور) ، ص٥.
* . للمزيد ينظر : الوردي ، د.علي ، دراسة في طبيعة المجتمع العراقي ، محاولة تمهيدية لدراسة المجتمع العربي الأكبر في ضوء علم الاجتماع الحديث ، (بغداد ، مطبعة العاني ، ١٩٦٥) .
١٦. السيد ، د. السيد عبد العاطي ، علم الاجتماع الحضري ، بين النظرية والتطبيق ، ج/١ ، مداخل نظرية ، (إسكندرية ، دار المعرفة الجامعية ، ١٩٨١) ، ص٢١٤ .
*. ينظر: مفتن ، احمد قاسم ، علاقة الانتماءات التقليدية بتحركات النازحين داخليا ، دراسة ميدانية في مدينة بغداد ، رسالة ماجستير (غير منشورة) ، (كلية الآداب ، جامعة بغداد ، ٢٠١٠) .
١٧. السيد ، د. السيد عبد العاطي ، مصدر سبق ذكره ، ص٢١٧.
* . الطبقة البرجوازية (Bourgeois) : استخدم المصطلح هنا بمعنى الطبقة الوسطى ، التي تعني كل ما يتصل بخصائص وتفضيلات هذه الطبقة التي تراكمت عبر مسيرتها ، خصوصا في الحضارة الغربية ، وبدرجة اقل في المجتمعات النامية ، أما عن استخدامه في العراق ، فيؤرخ له بعد تأسيس الدولة العراقية عام ١٩٢١ ، واكتسب ابتداء بعض المعاني الثقافية ، التي تشمل الغنى وسعة الأفاق الفكرية ، والتأنق في اللباس والسكن ومتابعة بعض الفنون الجميلة ، وإتقان بعض اللغات الحية (..) للمزيد ينظر : النوري ، د. قيس ، البرجوازية العراقية وصنع التاريخ الثقافي ، مجلة مدارك ، الموقع الالكتروني : *www.madarik.net/mag9-10/8.htm*
١٨. الجوهري ، د. محمد ، مصدر سبق ذكره ، ص٣٢١ .

Abstract

It is now possible to say: What Eptgeh human urban world twenty-first century and the subsequent centuries, sealed the dialectical relationship (Urbanization - Update), subjecting them within the framework of a balanced, balanced serving through the anxiety of thinking and act; because the place here if disorder and unbalanced , there is no doubt it affects urban rights.

TheAtalaltna on this subject, the obsession generate our since becoming balance the relationship between urbanization and modernization, like a dream deferred, at least in the Iraqi city, as we note the case glut urban seen in the city, which has been described as the process of urbanization redundant Over Urbanization "" evacuated first , infrastructure spatial of the city, resulted in a clear imbalance in the system of values, which Nkhtzelha here in the concept of modernization Update "", as we consider the case update here if troubled, by worsening the process of urbanization Urbanization "" itself, and then, the relationship between them despite Tazmanma together, inverse relationship, the higher the rate of urbanization Degree Of Urbanization "" Say with the level of modernization in the Iraqi

mentality. Even out of the dialectical relationship, and avoid falling into the trap of (role), we first, recognizing the lack of independence place urban, and this is due inherently to invasions and succession of groups migrating toward the city, and the resulting clear imbalance in the structure of the place ecologically and geographically, as well as If conflict socio - cultural, between urban values system, which is like a moribund status values; between ruralization values and place, becoming migratory values (rural) are printed urban human behavior. Based on these data, come questions the subject, at least two questions, we believe that they surround the problematic idea. Why, then, not accompanying urbanization updated on values? Are there urban behavior in the Iraqi city?